

فإن قُلْتُ: قوله ﴿وقيل الحمد لله﴾ من القائل تلك؟ قُلْتُ: المقضي بينهم إما جميع العباد وإما الملائكة كأنه قيل: وقضى بينهم بالحق وقالوا الحمد لله على قضائه بيننا بالحق، وإنزال كل منا منزلته التي هي حقه. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الزمر لم يقطع الله رجاءه يوم القيامة، وأعطاه الله ثواب الخائفين الذين خافوا». وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ: كان يقرأ كل ليلة بني إسرائيل والزمير⁽¹⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة غافر مكية

حَمْدٌ ﴿١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾.

قارئ بإمالة الف حا وتفخيمها وبتسكين الميم وفتحها ووجه الفتح التحريك لالتقاء الساكنين وإيثار أخف الحركات نحو أين، وكيف أو النصب بإضمار اقرأ ومنع الصرف للتانيث والتعريف أو للتعريف وأنها على زنه أعجمي نحو قابيل وهابيل التوب والشوب والأوب أخوات في معنى الرجوع والطول والفضل والزيادة يقال لفلان على فلان طول والإفضال يقال: طال عليه وتطول إذا تفضل.

غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّلَاقِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَإِلَيْهِ المَصِيرُ ﴿٣﴾.

فإن قُلْتُ: كيف اختلفت هذه الصفات تعريفاً وتنعيراً والموصوف معرفة يقتضي أن يكون مثله معارف؟ قُلْتُ: أما غافر الذنب، وقابل التوب فمعرفتان لأنه لم يرد بهما حدوث الفعلين وأنه يغفر الذنب ويقبل التوب الآن أو غداً حتى يكونا في تقدير الانفصال، فتكون إضافتهما غير حقيقية وإنما أريد ثبوت ذلك ودوامه فكان حكمهما حكم إله الخلق ورب العرش، وأما شديد العقاب فأمره مشكل لأنه في تقدير شديد عقابه لا ينفك من هذا التقدير، وقد جعله الزجاج بدلاً وفي كونه بدلاً وحده بين الصفات نبو ظاهر والوجه أن يقال لما صوبف بين هؤلاء المعارف هذه النكرة الواحدة، فقد أذنت بأن كلها أبدال غير أوصاف ومثال ذلك قصيدة جاءت تفاعيلها كلها على مستفعلن فهي محكوم عليها بأنها من بحر الرجز، فإن وقع فيها جزء واحد على متفاعلن كانت من الكامل ولقائل أن يقول هي صفات وإنما حذف الألف، واللام من شديد العقاب ليزواج ما قبله وما بعده لفظاً فقد غيروا كثيراً من كلامهم عن

لهم لأبواب فلنلك جيء بالواو كأنه قيل: حتى إذا جازها وقد نحت أبوابها.

فإن قُلْتُ: كيف عبر عن الذهاب بالفريقين جميعاً بلفظ السوء؟ قُلْتُ: المراد يسوق أهل النار طردهم إليها بالهوان والعنف كما يفعل بالأسارى والخارجين على السلطان إذا سيقوا إلى حبس أو قتل، والمراد يسوق أهل الجنة سوق مراكبهم لأنه لا يذهب بهم إلا راكبين وحثها إسراراً بهم إلى دار الكرامة والرضوان كما يفعل بما يشرف ويكرم من الوافدين على بعض الملوك فشتان ما بين السواقين ﴿طبتهم﴾ من دنس المعاصي، وطهرتم من خبث الخطايا ﴿فانخلوها﴾ جعل دخول الجنة مسبباً عن الطيب والطهارة فما هي إلا دار الطيبين ومثوى الطاهرين لأنها دار طهرها الله من كل دنس وطيبها من كل قدر فلا يدخلها إلا مناسب لها موصوف بصفتها، فما أبعد أحوالنا من تلك المناسبة وما أضعف سعينا في اكتساب تلك الصفة إلا أن يهب لنا الوهاب الكريم توبة نصوحاً تنقى أنفسنا من دنس الذنوب وتميط وضر هذه القلوب ﴿خالدين﴾ مقدرين الخلود.

وَنَاوَأُوا أَلْحَسَدُ إِلَهُ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَمَ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَبْرَأُ مِنَ الْجِنَّةِ جَبْنًا نَشَاءُ فَمَعْمَ أَعْرُ الْعَمَلِينَ ﴿٤﴾.

﴿الأرض﴾ عبارة عن المكان الذي أقاموا فيه واتخذوه مقراً ومتبوا، وقد أورثها أي ملكوها وجعلوا ملوكها وأطلق تصرفهم فيها كما يشاؤون تشبيهاً بحال الوارث وتصرفه فيما يرثه واتساعه فيه وذهابه في إنفاقه طولاً وعرضاً.

فإن قُلْتُ: ما معني قوله ﴿حيث نشاء﴾ وهل يتبوا أحدهم مكان غيره! قُلْتُ: يكون لكل واحد منهم جنة لا تصف سعة وزيادة على الحاجة فيتبوا من جنته حيث يشاء ولا يحتاج إلى جنة غيره.

وَرَبِّ الْمَلَائِكَةِ حَافِيَتٍ مِّنْ حَوْلِ الْعَرْشِ مَسْبُوحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَفِيهِ يَتَّبِعُهُمُ الْبَلَقُ وَقِيلَ أَلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٥﴾.

﴿حافيين﴾ محديقين من حوله: ﴿يسبحون بحمد ربهم﴾ يقولون: سبحان الله والحمد لله متلذنين لا متعبدين. فإن قُلْتُ: لإلام يرجع الضمير في قوله ﴿بينهم﴾؟ قُلْتُ: يجوز أن يرجع إلى العباد كلهم وأن إدخال بعضهم النار وبعضهم الجنة لا يكون إلا قضاء بينهم بالحق والعدل، وأن يرجع إلى الملائكة على أن ثوابهم وإن كانوا معصومين جميعاً لا يكون على سنن واحد، ولكن يفاضل بين مراتبهم على حسب تفاضلهم في أعمالهم فهو القضاء بينهم بالحق.

(1) أخرجه الحاكم في المستدرک، 434/2. وأخرجه أحمد في المسند: 68/6. وعند أبي يعلى تنزيل السجدة والزمير (الحديث: 7643) و(4764).

بالكفر والكافر لا أحد أشقى منه عند الله وجب على من تحقق ذلك أن لا ترجح أحوالهم في عينه ولا يفرض إقبالهم في نبيهم وتقلبهم في البلاد بالتجارات النافقة والمكاسب المربحة، وكانت قريش كذلك يتقلبون في بلاد الشام واليمن ولهم الأموال يتجرون فيها ويتربحون فإن مصير ذلك وعاقبته إلى الزوال ووراء شقارة الأبد، ثم ضرب لتكنيهم وعداوتهم للرسول وجدالهم بالباطل ما أدخل لهم من سوء العاقبة مثلاً ما كان من نحو ذلك من الأمم وما أخذهم به من عقابه وأحله بساحتهم من انتقامه وقرئ فلا يفرك.

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكُلُّ
أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَيَجَادِلُوا بِالْبَاطِلِ لِئَلْحِضُوا بِهِ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ
فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾

﴿الأحزاب﴾ الذين تحزبوا على الرسل وناصرهم وهم عاد وثمود وفرعون وغيرهم ﴿وهمت كل أمة﴾ من هذه الأمم التي هي قوم نوح الأحزاب ﴿برسولهم﴾، وقرئ برسولها ﴿ليأخذوه﴾ ليتمكنوا منه ومن الإيقاع به وإصابته بما أراها من تعذيب أو قتل ويقال للأسير أخيد ﴿فاخذتكم﴾ يعني: أنهم قصدوا أخذه فجعلت جزاءهم على إرادة أخذه إن أخذتكم ﴿فكيف كان عقاب﴾ فإنكم تمررون على بلادهم ومسكنهم فتعاينون أثر ذلك، وهذا تقرير فيه معنى التعجيب.

وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَمَثَلِ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ
﴿١﴾

﴿أنهم أصحاب النار﴾ في محل الرفع بدل من كلمة ربك أي مثل ذلك الوجوب وجب على الكفرة كونهم من أصحاب النار، ومعناه: كما وجب إهلاكهم في الدنيا بالعذاب المستأصل كذلك وجب إهلاكهم بعذاب النار في الآخرة، أو في محل النصب بحذف لام التعليل وإيصال الفعل، والذين كفروا قريش ومعناه كما وجب إهلاك أولئك الأمم كذلك وجب إهلاك هؤلاء لأن علة واحدة تجمعهم أنهم من أصحاب النار، قرئ كلمات.

الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الصَّلَاةَ وَالَّذِينَ يَسْتَعِينُونَ بِحِمْلِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ
وَيَسْتَعِينُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا
فَاعْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾

روي أن حملة العرش أرجلهم في الأرض السفلى ورؤسهم قد خرقت العرش وهم خشوع لا يرفعون طرفهم وعن النبي ﷺ: «لا تتفكروا في عظم ربكم ولكن تفكروا

قوانينه لأجل الأزواج حتى قالوا ما يعرف سحاليه من عناديه، فثنا ما هو وتر لأجل ما هو شفع على أن الخليل قال في قولهم: ما يحسن بالرجل مثلك أن يفعل ذلك، وما يحسن بالرجل خير منك أن يفعل أنه على نية الألف واللام كما كان الجماء الغفير على نية طرح الألف واللام، ومما سهل ذلك الأمن من اللبس وجهالة الموصوف ويجوز أن يقال قد تعدد تنكيهه وإبهامه للدلالة على فرط الشدة وعلى ما لا شيء أدهى منه وأمر لزيادة الإنذار، ويجوز أن يقال هذه النكتة هي الداعية إلى اختيار البدل على الوصف إذا سلكت طريقة الإبدال.

فإن قلت: ما بال الواو في قوله وقابل التوب قلت: فيها نكتة جليلة، وهي إفادة الجمع للمذنب الثابت بين رحمتين بين أن يقبل توبته فيكتبها له طاعة من الطاعات وأن يجعلها محاة الذنوب كأن لم ينذب كأنه قال: جامع المغفرة والقبول، وروي أن عمر رضي الله عنه افتقد رجلاً ذا بأس شديد من أهل الشام فقيل له: تتابع في هذا الشراب فقال عمر لكاتبه: اكتب من عمر إلى فلان سلام عليك وأنا أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ﴿بسم الله الرحمن الرحيم حم﴾ إلى قوله ﴿إليه المصير﴾⁽¹⁾ وختم الكتاب وقال لرسوله: لا تدفعه إليه حتى تجده صاحباً ثم أمر من عنده بالدعاء له بالتوبة فلما أتته الصحيفة جعل يقرؤها ويقول: قد وعدني الله أن يغفر لي وحزرتي عقابه فلم يبرح يرددتها حتى بكى، ثم نزع فأحسن النزوع وحسنت توبته، فلما بلغ عمر أمره قال: هكذا فاصنعوا إذا رأيتم أحاكم قد زل زلة فسدنوه ووقفوه وادعوا له الله أن يتوب عليه ولا تكونوا عوناً للشياطين عليه⁽²⁾، سجل على المجادلين في آيات الله بالكفر والمراد الجدل بالباطل من الطعن فيها والقصد إلى إحضار الحق، وإطفاء نور الله وقد دل على ذلك في قوله: ﴿وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق﴾.

مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَنْزِلُ عَلَيْهِمْ فِي الْيَوْمِ
﴿١﴾

فأما الجدل فيها لإيضاح ملتبسها وحل مشكلها، ومقابلة أهل العلم في استنباط معانيها ورد أهل الزيغ بها وعنها فاعظم جهاد في سبيل الله وقوله ﷺ: «إن جدالاً في القرآن كفر وإيراده منكراً⁽³⁾». وإن لم يقل إن الجدل تمييز منه بين جدال وجدال.

فإن قلت: من أين تسبب لقوله: ﴿فلا يغررك﴾ ما قبله؟ قلت: من حيث أنهم لما كانوا مشهوداً عليهم من قبل الله

(1) سورة غافر، الآيات: 1 - 3.

(2) رواه أبو نعيم في الحلية في ترجمة يزيد بن الأصم.

(3) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في تعظيم القرآن، فصل في ترك المماراة في القرآن (الحديث: 2257)، وعن أبي هريرة (الحديث: 2255).

ولكن أزيل الكلام عن أصله بأن أسند الفعل إلى صاحب الرحمة، والعلم وأخرجا منصوبين على التمييز للإغراق في وصفه بالرحمة والعلم كأن ذاته رحمة وعلم واسعان كل شيء.

فإن قلت: قد نكر الرحمة والعلم فوجب أن يكون ما بعد الفاء مشتملاً على حديثهما جميعاً، وما نكر إلا الغفران وحده **قلت:** معناه فاغفر للذين علمت منهم التوبة واتباع سبيلك وسبيل الله سبيل الحق التي نهجها لعباده، ودعا إليها.

رَبَّنَا وَأَنْجِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ أَلَمِيرُ الْحَكِيمِ ﴿٨﴾.

﴿إنك أنت العزيز الحكيم﴾ أي الملك الذي لا يغلب وانت مع ملكك وعزتك لا تفعل شيئاً إلا بداعي الحكمة، وموجب حكمتك أن تفي بوعدك.

وَهُمْ السَّعَاتِ وَمَنْ تَوَى السَّعَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتُمْ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾.

﴿وقهم السيئات﴾ أي: العقوبات أو جزاء السيئات فحذف المضاف على أن السيئات هي الصغائر، أو الكبائر المتوب عنها والوقاية منها التكفير أو قبول التوبة.

فإن قلت: ما الفائدة في استغفارهم لهم وهم تائبون صالحون موعودون المغفرة والله لا يخلف الميعاد.

فإن قلت: هذا بمنزلة الشفاعة وفائدته زيادة الكراهة والثواب، وقرئ جنة عدن وصلح بضم اللام والفتح أقصح يقال: صلح فهو صالح وصلح فهو صليح وذريتهم أي ينالون يوم القيامة، فيقال لهم:

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَسْأَلُونَ لِمَ قَتَلْتُمُ اللَّهُ أَكْبَرَ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُنْفَخُ إِلَى الْإِيمَانِ فَتُكْفَرُونَ ﴿١٠﴾.

﴿لمقت الله أكبر﴾ والتقدير لمقت الله أنفسكم أكبر من مقتكم أنفسكم، فاستغنى بذكرها مرة و **﴿إذ تدعون﴾** منصوب بالمقت الأول والمعنى أنه يقال لهم يوم القيامة: كان الله يمقت أنفسكم الأمانة بالسوء، والكفر حين كان الأنبياء يدعونكم إلى الإيمان فتأتون قبوله وتختارون عليه الكفر أشد مما تمقتونهن اليوم، وأنتم في النار إذ أوقعتكم فيها باتباعكم هواهن، وعن الحسن: لما رأوا أعمالهم الخبيثة مقتوا أنفسهم فنودوا لمقت الله، وقيل: معناه لمقت الله إياكم الآن أكبر من مقت بعضهم لبعض كقوله تعالى: **﴿يكفر بعضهم ويلعن بعضهم بعضاً﴾**، وإذ تدعون تعليل والمقت أشد البغض فوضع في موضع أبلغ الإنكار وأشده.

فيما خلق الله من الملائكة فإن خلقاً من الملائكة يقال له: إسرافيل زاوية من زوايا العرش على كاهله، وقدماه في الأرض السفلى وقد مرق رأسه من سبع سموات وأنه ليتضاءل من عظمة الله حتى يصير كأنه الوصع⁽¹⁾ وفي الحديث: «إن الله تعالى أمر جميع الملائكة أن يغدوا ويروحوا بالسلام على حملة العرش تفضيلاً لهم على سائر الملائكة»⁽²⁾، وقيل: خلق الله العرش من جوهرة خضراء وبين القائمتين من قوائمه خفقان الطير المسرع ثمانين ألف عام وقيل: حول العرش سبعون ألف صنف من الملائكة يطوفون به مهللين مكبرين ومن ورائهم سبعون ألف صف قيام قد وضعوا أيديهم على عواتقهم رافعين أصواتهم بالتهليل والتكبير، ومن ورائهم مائة ألف صف قد وضعوا الأيمان على الشمائل ما منهم أحد إلا وهو يسبح بما لا يسبح به الآخر، وقرأ ابن عباس العرش بضم العين.

فإن قلت: ما فائدة قوله **﴿ويؤمنون به﴾** لا يخفى على أحد أن حملة العرش ومن حوله من الملائكة الذين يسبحون بحمد ربهم مؤمنون! **قلت:** فائدته إظهار شرف الإيمان وفضله، والترغيب فيه كما وصف الأنبياء في غير موضع من كتابه بالصلاح لذلك وكما عقب أعمال الخير بقوله تعالى: تم كان من الذين آمنوا فإبان بذلك فضل الإيمان وفائدة أخرى وهي التنبيه على أن الأمر لو كان كما تقول المجسمة لكان حملة العرش ومن حوله مشاهدين معابدين، ولما وصفوا بالإيمان لأنه إنما يوصف بالإيمان الغائب فلما وصفوا به على سبيل الثناء عليهم علم أن إيمانهم وإيمان من في الأرض، وكل من غاب عن ذلك المقام سواء في أن إيمان الجميع بطريق النظر والاستدلال لا غير وأنه لا طريق إلى معرفته إلا هذا، وأنه منزّه عن صفات الأجرام وقد روعي التناسب في قوله ويؤمنون به **﴿ويستغفرون للذين آمنوا﴾**، كأنه قيل: ويؤمنون ويستغفرون لمن في مثل حالهم وصفتهم وفيه تنبيه على أن الاشتراك في الإيمان يجب أن يكون ادعى شيء إلى النصيحة وأبعثه على إحاض الشفقة، وإن تفاوتت الأجناس وتباعدت الإيمان الأماكن فإنه لا تجانس بين ملك وإنسان ولا بين سماوي وأرضي قط، ثم لما جاء جامع الإيمان جاء معه التجانس الكلي والتناسب الحقيقي حتى استغفر من حول العرش لمن فوق الأرض قال الله تعالى: **﴿ويستغفرون لمن في الأرض﴾**⁽³⁾ أي يقولون **﴿ربنا﴾** وهذا المضمّر يحتمل أن يكون بياناً ليستغفرون مرفوع المحل مثله وأن يكون حالاً.

فإن قلت: تعالي الله عن المكان فكيف صح أن يقال وسع كل شيء؟ **قلت:** الرحمة والعلم هما اللذان وسعا كل شيء في المعنى، والأصل وسع كل شيء رحمتك وعلمك

(3) سورة الشورى، الآية: 5.

(1) قال الزليعي غريب، ونسبه إلى تفسير الثعالبي، 3/218.

(2) لم يخرج الزليعي.

عقاب مثله لا يكون إلا كذلك وهو الذي يطابق كبرياءه ويناسب جبروته، وقيل: كان الحرورية أخذوا قولهم لا حكم إلا لله من هذا.

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُرْسِلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ﴿١٧﴾.

﴿يريك آياته﴾ من الريح والسحاب والرعد والبرق والصواعق ونحوها، والرزق المطر لأنه سببه ﴿وما يتذكر إلا من ينيب﴾ وما يتعظ وما يعتبر بآيات الله إلا من يتوب من الشرك ويرجع إلى الله فإن المعاند لا سبيل إلى تنكركه واتعاطه، ثم قال للمنيبين:

فَادْعُوا اللَّهَ حُجُوبًا لَهُ الَّذِينَ وَاوَّكِرَهُ الْكَافِرُونَ ﴿١٨﴾.

﴿فادعوا الله﴾ أي اعبده ﴿مخلصين له الدين﴾ من الشرك وإن غاظ ذلك أعداءكم ممن ليس على دينكم.

رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ. يُنذِرُ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١٩﴾.

﴿رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح﴾ ثلاثة أخبار لقوله هو مرتبة على قوله: ﴿الذي يريكم﴾، أو أخبار مبتدأ محذوف وهي مختلفة تعريفاً وتنكيراً وقرئ: ﴿رفيع الدرجات﴾ بالنصب على المدح ورفيع الدرجات كقوله تعالى: ﴿ذي المعارج﴾⁽³⁾ وهي مساعد الملائكة إلى أن تبلغ العرش وهي دليل على عزته وملكوته. وعن ابن جبير: سماء فوق سماء العرش فوقهن، ويجوز أن يكون عبارة عن رفعة شأنه وعلو سلطانه كما أن ذا العرش عبارة عن ملكه وقيل: هي درجات ثوابه التي ينزلها أوليائه في الجنة ﴿الروح من أمره﴾ الذي هو سبب الحياة من أمره يريد الوحي الذي هو أمر بالخير وبعث عليه، فاستعار له الروح كما قال تعالى: ﴿أومن كان ميتاً فأحييناه﴾⁽⁴⁾ ﴿لينذر﴾ الله أو الملقى عليه وهو الرسول أو الروح، وقرئ: لتنذر أي لتنذر الروح لأنها تؤنث أو على خطاب الرسول، وقرئ: لينذر يوم التلاق على البناء للمفعول ﴿ويوم التلاق﴾ يوم القيامة لأن الخلائق تلتقي فيه، وقيل: يلتقي فيه أهل السماء وأهل الأرض وقيل: المعبود والعابد.

يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٢٠﴾.

﴿يوم هم بارزون﴾ ظاهرون لا يستترهم شيء من جبل، أو أكمة أو بناء لأن الأرض بارزة قاع صاف ولا عليهم ثياب إنما هم عراة مكشوفون كما جاء في الحديث يحشرون عراة حفاة غرلاً⁽⁵⁾ ﴿لا يخفى على الله منهم شيء﴾ أي من أعمالهم وأحوالهم، وعن ابن مسعود

قَالُوا رَبَّنَا آتِنَا آتِيَّتَيْنِ وَآخِيَّتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٢١﴾.

﴿اثنين﴾ إمتين وإحياءتين، أو موتتين وحياتين وأراد بالإمتين خلقهم أمواتاً أولاً وإمتاتهم عند انقضاء آجالهم وبالإحياءتين الإحياء الأولى وإحياءة البعث وناهيك تفسيراً لذلك قوله تعالى: ﴿وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم﴾⁽¹⁾ وكذا عن ابن عباس رضي الله عنهما.

فإن قلت: كيف صح أن يسمي خلقهم أمواتاً إماتة؟ قلت: كما صح أن تقول: سبحان من صغر جسم البعوضة وكبر جسم الفيل، وقولك للحفار ضيق فم الركية ووسع أسفلها وليس ثم نقل من كبر إلى صغر ولا من صغر إلى كبر ولا من ضيق إلى سعة، ولا من سعة إلى ضيق وإنما أردت الإنشاء على تلك الصفات والسبب في صحته أن الصغر والكبر جائزان معاً على المصنوع الواحد من غير ترجيح لأحدهما، وكذلك الضيق والسعة فإذا اختار الصانع أحد الجائزين، وهو متمكن منهما على السواء فقد صرف المصنوع عن الجائز الآخر فجعل صرفه عنه كقلبه منه ومن جعل الإمتين التي بعد حياة الدنيا والتي بعد حياة القبر لزمه إثبات ثلاث إحياءات وهو خلاف ما في القرآن إلا أن يتحمل، فيمجل إحداها غير معتد بها أو يزعم أن الله تعالى يحييهم في القبور وتستمر بهم تلك الحياة فلا يموتون بعدها، ويعدم في المستثنين من الصعقة في قوله تعالى: ﴿إلا من شاء الله﴾⁽²⁾.

فإن قلت: كيف تسبب هذا لقوله تعالى ﴿فاعترفنا بنذوبنا﴾؟ قلت: قد أنكروا البعث، فكفروا وتبع ذلك من الذنوب ما لا يحصى لأن من لم يخش العاقبة تخرق في المعاصي فلما راوا الإماتة والإحياء قد تكرر عليهم علموا بأن الله قادر على الإعادة قدرته على الإنشاء فاعترفوا بنذوبهم التي اقترفوها من إنكار البعث وما تبعه من معاصيهم ﴿فهل إلى خروج﴾ أي إلى نوع من الخروج سريع أو بطيء ﴿من سبيل﴾ قط أم اليأس واقع بون ذلك، فلا خروج ولا سبيل إليه وهذا كلام من غلب عليه اليأس والقنوط وإنما يقولون ذلك تلعلاً وتحيراً، ولهذا جاء الجواب على حسب ذلك وهو قوله:

ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُتْرَكَ يَهْدِ تَوْشُؤًا فَاذْكُرْكُمُ لِلَّهِ الْكَبِيرِ ﴿٢٢﴾.

﴿للكم﴾ أي للكم الذي أنتم فيه وأن لا سبيل لكم إلى خروج قط بسبب كفركم بتوحيد الله، وإيمانكم بالإشراك به ﴿فالحكم لله﴾ حيث حكم عليكم بالعذاب السرمد وقوله: ﴿العلي الكبير﴾ دلالة على الكبرياء والعظمة وعلى أن

(4) سورة الأنعام، الآية: 122.

(5) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: الحشر (الحديث رقم:

6527)، ومسلم في كتاب: الجنة، باب: فناء الدنيا وبيان الحشر يوم =

(1) سورة البقرة، الآية: 28.

(2) سورة الزمر، الآية: 68.

(3) سورة المعارج، الآية: 3.

رضي الله عنه لا يخفى عليه منهم شيء.

وإن القلوب كاظمة على غم وكره فيها مع بلوغها الحناجر وإنما جمع الكاظم جمع السلامة لأنه وصفها بالكظم الذي هو من أفعال العقلاء كما قال تعالى: ﴿رَأَيْتَهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ (4) وقال: ﴿فَطَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ (5) وتعضده قراءة من قرأ كاظمون ويجوز أن يكون حالاً عن قوله: ﴿وَأَنْذَرَهُمْ﴾ (6) أي وأنذرهم مقدّرين أو مشارفين الكظم كقوله تعالى: ﴿فَانْخَلَوْهَا خَالِدِينَ﴾. الحميم المحب المشفق. والمطاع مجاز في المشفع لأن حقيقة الطاعة نحو حقيقة الأمر في أنها لا تكون إلا لمن فرقك.

فإن قُلْتُ: ما معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا شَفِيعَ يُطَاعُ﴾؟ قُلْتُ: يحتمل أن يتناول النفي الشفاعة والطاعة معاً وأن يتناول الطاعة بون الشفاعة كما تقول ما عندي كتاب يباع فهو محتمل نفي البيع وحده وأن عندك كتاباً إلا أنك لا تبعه ونفيهما جميعاً وأن لا كتاب عندك ولا كونه مبيعاً، ونحوه ولا ترى الضب بها ينحدر يريد نفي الضب وانحجاره.

فإن قُلْتُ: فعلى أي الاحتمالين يجب حمله! قُلْتُ: على نفي الأمرين جميعاً من قبل أن الشفعاء هم أولياء الله وأولياء الله لا يحبون ولا يرضون إلا من أحبه الله ورضيه وأن الله لا يحب الظالمين، فلا يحبونهم وإذا لم يحبهم لم ينصروهم ولم يشفعوا لهم قال الله تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ وقال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى﴾، ولأن الشفاعة لا تكون إلا في زيادة التفضل وأهل التفضل وزيادته وإنما هم أهل الثواب بدليل قوله تعالى: ﴿وَيُزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ (7) وعن الحسن رضي الله عنه والله ما يكون لهم شفيع البتة.

فإن قُلْتُ: الغرض حاصل بذكر الشفيع، ونفيه فما الفائدة في نكر هذه الصفة ونفيها؟ قُلْتُ: في نكرها فائدة جليلة وهي أنها ضمت إليه ليقام انتفاء الموصوف مقام الشاهد على انتفاء الصفة لأن الصفة لا تتأني بدون موصوفها، فيكون ذلك إزالة لتوهم وجود الموصوف بيانه أنك إذا عوتبت على القعود عن الغزو فقلت ما لي فرس أركبه ولا معي سلاح أحارب به فقد جعلت عدم الفرس، وفقد السلاح علة مانعة والركوب والمحاربة كأنك تقول: كيف يتأتى مني الركوب والمحاربة ولا فرس لي ولا سلاح معي فكذلك قوله: ﴿لَا شَفِيعَ يُطَاعُ﴾ معناه: كيف يتأتى التشفيع ولا شفيع فكان نكر التشفيع والاستشهاد على عدم تأنيه بعدم الشفيع وضماً لانتفاء الشفيع موضع الأمر المعروف غير المنكر الذي لا ينبغي أن يتوهم خلافه.

يَعْلَمُ حَاطَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تَعْنَى الصُّدُورِ (٨).

فإن قُلْتُ: قوله لا يخفى على الله منهم شيء بيان وتقرير لبروزهم والله تعالى لا يخفى عليه منهم شيء برزوا أو لم يبرزوا فما معناه؟ قُلْتُ: معناه: أنهم كانوا يتوهمون في الدنيا إذا استتروا بالحيطان والحجب أن الله لا يراهم ويخفى عليه أعمالهم، فهم اليوم صاثرون من البروز والانكشاف إلى حال لا يتوهمون فيها مثل ما كانوا يتوهمونه قال الله تعالى: ﴿وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنْ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (1) وقال تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ﴾ (2) وذلك لعلمهم أن الناس يبصرونهم وظنهم أن الله لا يبصرهم وهو معنى قوله: وبرزوا لله الواحد القهار ﴿لِمَنْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ﴾ حكاية لما يسئل عنه في ذلك اليوم ولما يجاب به، ومعناه: أنه ينادي مناد فيقول: ﴿لِمَنْ الْمَلِكُ﴾ اليوم فيجيبه أهل المحشر ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾، وقيل: يجمع الله الخلائق يوم القيامة في صعيد واحد بارض بيضاء كأنها سبيكة فضة لم يعص الله فيها قط فأول ما يتكلم به أن ينادي مناد لمن الملك اليوم لله الواحد القهار.

أَيَّومٍ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّكَ اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٧).

﴿اليوم تجزى كل نفس﴾ الآية فهذا يقتضي أن يكون المذني هو المجيب، لما قرّر أن الملك لله وحده في ذلك اليوم عدد نتائج ذلك وهي أن كل نفس تجزى ما كسبت وأن الظلم مأمون لأن الله ليس بظلام للعبيد وأن الحساب لا يخطئ لأن الله لا يشغله حساب عن حساب فيحاسب الخلدن كله في وقت واحد، وهو أسرع الحاسبين وعن ابن عباس رضي الله عنهما إذا أخذ في حسابهم لم يقل أهل الجنة إلا فيها ولا أهل النار إلا فيها.

وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْأَرْزَاقِ إِذْ أَلْفُورُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَاصِرٍ وَلَا شَفِيعَ يُطَاعُ (٧).

﴿الأرزاق﴾: القيامة سميت بذلك لأزوفها أي لقربتها ويجوز أن يريد بيوم الأرزاق وقت الخطة الأرزاق وهي مشافقتهم دخول النار فعند ذلك ترتفع قلوبهم عن مقارها، فتلتصق بحناجرهم فلا هي تخرج فيموتوا ولا ترجع إلى موادسها فيتنفسوا ويتروحوها ولكنها معترضة كالشجا كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ (3).

فإن قُلْتُ: ﴿كاظمين﴾ بم انتصب! قُلْتُ: هو حال عن أصحاب القلوب على المعنى، لأن المعنى: إذ قلوبهم لدى حناجرهم كاظمين عليها ويجوز أن يكون حالاً عن القلوب

= القيامة (الحديث رقم: 56 - 2859).

(4) سورة يوسف، الآية: 4.

(5) سورة الشعراء، الآية: 4.

(6) سورة مريم، الآية: 39.

(7) سورة النساء، الآية: 173.

(1) سورة فصلت، الآية: 22.

(2) سورة النساء، الآية: 108.

(3) سورة الملك، الآية: 27.

مَعَهُمْ وَأَسْخِرُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي سَكَلٍ ﴿١٥﴾.

﴿فلما جاءهم بالحق﴾ بالنبوة.

فإن قُلْتُ: أما كان قتل الأبناء، واستحياء النساء من قبل خيفة أو يولد المولود الذي أنذرته الكهنة بظهوره وزوال ملكه على يده؟ قُلْتُ: قد كان ذلك القتل حينئذ وهذا قتل آخر، وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿قالوا اقتلوا﴾ أعيديا عليهم القتل كالذي كان، أو لا يريد أن هذا قتل غير القتل الأول ﴿في ضلال﴾ في ضياع وذهاب باطلاً لم يجد عليهم يعني: أنهم باشروا قتلهم، أو لا فما أغنى عنهم ونفذ قضاء الله بإظهار من خافوه فما يغني عنهم هذا القتل الثاني وكان فرعون قد كف عن قتل الولدان فلما بعث موسى، وأحس بانه قد وقع اعاده عليهم غيظاً وحنقاً وظناً منه أنه يصددهم بذلك عن مظاهره موسى وما علم أن كيدهم ضائع في الكرتين جميعاً.

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذُرِّيَّتِي أَتَمَلُّوا مَرْءِي وَيَتَّبِعُ رِبِّيَ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿١٦﴾.

﴿ذروني اقتل موسى﴾ كانوا إذا هم بقتله كفوه بقولهم ليس بالذي تخافه وهو أقل من ذلك وأضعف وما هو إلا بعض السحرة، ومثله لا يقاوم إلا ساحراً مثله ويقولون إذا قتلته أسخت الشبهة على الناس واعتقدوا أنك قد عجزت عن معارضته بالحجة والظاهر أن فرعون لعنه الله كان قد استيقن أنه نبي وأن ما جاء به آيات وما هو بسحر ولكن الرجل كان فيه خب وجريزة، وكان قتلاً سفاكاً للدماء في أهون شيء فكيف لا يقتل من أحس منه بانه هو الذي يثل عرشه ويهدم ملكه، ولكنه كان يخاف إن هم بقتله أن يعاجل بالهلاك وقوله ﴿وليدع ربه﴾ شاهد صدق على فرط خوفه منه ومن دعوته ربه وكان قوله ذروني اقتل موسى تمويهاً على قومه وإيهاماً أنهم هم الذين يكفونه وما كان يكفه إلا ما في نفسه من هول الفزع ﴿أن يبديل دينكم﴾ أن يغير ما أنتم عليه وكانوا يعبدونه، ويعبدون الأصنام بليل قوله: ﴿ويدرك وأهتك﴾ والفساد في الأرض: التفانن والتهاجر الذي يذهب معه الأمن، وتتعتل المزارع والمكاسب والمعاش ويهلك الناس قتلاً وضياًعاً كأنه قال: إنني أخاف أن يفسد عليكم دينكم بدعوتكم إلى دينه، أو يفسد عليكم دنياكم بما يظهر من الفتن بسببه وفي مصاحف أهل الحجاز وأن يظهر بالواو، ومعناه: إنني أخاف فساد دينكم ودنياكم معاً. وقرئ: يظهر من أظهر والفساد منصوب أي: يظهر موسى الفساد، وقرئ: يظهر بتشديد الظاء والهاء من تظهر بمعنى تظاهر أي: تتابع وتعاون.

وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ

الخائنة صفة للنظرة أو مصدر بمعنى الخيانة كالعافية بمعنى: المعافاة والمراد استراق النظر إلى ما لا يحل كما يفعل أهل الريب، ولا يحسن أن يراد الخائنة من الاعين لأن قوله: ﴿وما تخفي الصدور﴾ (1) لا يساعد عليه.

فإن قُلْتُ: بم اتصل قوله: ﴿يعلم خائنة الاعين﴾! قُلْتُ: هو خبر من أخبار هو في قوله: ﴿هو الذي يريكم﴾ (2) مثل ﴿يلقي الروح﴾ ولكن يلقي الروح قد علل بقوله: ﴿لينذر يوم التلاق ثم استطرد نكر أحوال يوم التلاق﴾ إلى قوله: ﴿ولا شفيع بطاع﴾ (3) فبعد لذلك عن أخواته.

وَأَلَّهُ يَمَعِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَعْضُونَ إِيَّائِي اللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١٧﴾.

﴿وإله يقضي بالحق﴾ يعني: والذي هذه صفاته وأحواله لا يقضي إلا بالحق والعدل لاستغناؤه عن الظلم، وأهنتكم لا يقضون بشيء وهذا تهكم بهم لأن ما لا يوصف بالقدرة لا يقال فيه يقضي أو لا يقضي ﴿إن الله هو السميع البصير﴾ تقرير لقوله: ﴿يعلم خائنة الاعين وما تخفي الصدور﴾ ووعيد لهم بانه يسمع ما يقولون ويبصر ما يعملون وأنه يعاقبهم عليه وتعريض بما يدعون من دون الله وإنها لا تسمع ولا تبصر، وقرئ: يدعون بالثناء والياء.

﴿أولم يبئروا في الأرض فينظروا كيف كان عيبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثاراً في الأرض فأندمهم الله يدؤبهم وما كان لهم من الله من وافي﴾ (1) ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسالتهم بالبينة فكفروا فأندمهم الله إنهم قريئ شديد العقاب (2).

هم في ﴿كانوا هم أشد منهم﴾ فصل.

فإن قُلْتُ: من حق الفصل أن لا يقع إلا بين معرفتين فما باله واقعاً بين معرفة وغير معرفة وهو أشد منهم قُلْتُ: قد ضارع المعرفة في أنه لا تتخله الالف واللام فأجرى مجراها، وقرئ: منكم وهي في مصاحف أهل الشام ﴿وآثاراً﴾ يريد حصونهم وقصورهم وعددهم وما يوصف بالشدة من آثارهم، أو ارادوا أكثر آثاراً كقوله متقلداً سيفاً ورمحاً.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ إِلَيْكَ فِرْعَوْنَ وَهَمَكَ وَقَرُّوتَ فَقَالُوا سِحْرٌ كَذَابٌ ﴿١٩﴾.

﴿وسلطان مبين﴾ حجة ظاهرة وهي المعجزات فقالوا: هو ساحر كذاب فسموا السلطان المبين سحراً وكذاباً.

فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّآ آتَاءُ مَا مَنُونَا

(3) سورة غافر، الآية: 18.

(1) سورة غافر، الآية: 19.

(2) سورة غافر، الآية: 13.

يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٧٧﴾.

تعرضتم له.

فإن قُلْتُمْ: لم قال بعض ﴿الذي يعدكم﴾ وهو نبي صادق لا بد لما يعدهم أن يصيبهم كله لا بعضه؟ قُلْتُمْ: لأنه احتاج في مقابلة خصوم موسى ومناكره إلا أن يلاوصهم ويداريهم ويسلك معهم طريق الإنصاف في القول ويأتيهم من جهة المناصحة فجاء بما علم أنه أقرب إلى تسليمهم لقوله وأنخل في تصديقهم له وقبولهم منه، فقال: وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم وهو كلام المنصف في مقاله غير المشتط فيه ليسمعوا منه ولا يردوا عليه وذلك أنه حين فرضه صادقاً فقد أثبت أنه صادق في جميع ما يعد، ولكنه أرففه يصبكم بعض الذي يعدكم ليهضمه بعض حقه في ظاهر الكلام فيريهم أنه ليس بكلام من أعطاه حقه وأفيًا فضلاً أن يتعصب له، أو يرمي بالحصان من ورائه وتقديم الكاتب على الصديق أيضاً من هذا القبيل، وكذلك قوله: إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب.

فإن قُلْتُمْ: فعن أبي عبيدة أنه فسر البعض بالكل وأنشد بيت:

ليبد تراك أمكنة إذا لم أرضها أو يرتبب بعض النفوس حمامها

قُلْتُمْ: إن صحت الرواية عنه فقد حق فيه قول المازني في مسألة العلقي كان أجفى من أن يفقه ما أقول له ﴿إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب﴾. يحتمل أنه إن كان مسرفاً كذاباً خذله الله، وأهلكه ولم يستقم له أمر فيتخلصون منه وأنه لو كان مسرفاً كذاباً لما هداه الله للنبوّة ولما عضده بالبينات، وقيل: ما تولى أبو بكر من رسول الله ﷺ كان أشد من ذلك طاف ﷺ بالبيت، فلقوه حين فرغ فأخذوا بمجامع ردايه فقالوا له: أنت الذي تنهانا عما كان يعبد آبائنا فقال: «أنا ذاك» فقام أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فالتزمه من ورائه وقال: «اتقلتون رجلاً أن يقول ربي الله؟» وقد جاءكم بالبينات من ربكم رافعاً صوته بذلك وعيناه تسفحان حتى أرسلوه⁽¹⁾ وعن جعفر الصادق: أن مؤمن آل فرعون قال ذلك سرّاً وأبو بكر قاله ظاهرًا.

يَقُولُ لَكُمْ أَلَمْ تُكَلِّمُوا النَّبِيَّ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَضُرُّكُمْ مِنْ
بِئْسَ اللَّهُ إِنْ جَاءَتْكُمْ آيَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا
سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٧٨﴾.

﴿ظاهرين في الأرض﴾ في أرض مصر عالين فيها على بني إسرائيل يعني: أن لكم ملك مصر وقد علوتم الناس وقهرتموهم فلا تفسدوا أمركم على أنفسكم، ولا تعرضوا لبأس الله وعذابه فإنه لا قيل لكم به إن جاءكم ولا يمنعكم منه أحد وقال: ﴿ينصرون﴾ وجاءنا لأنه منهم في القرابة، وليعلمهم بأن الذي ينصحهم به هو مساهم لهم فيه ﴿ما أرى﴾ أي ما أشير عليكم برأي

لما سمع موسى عليه السلام بما أجراه فرعون من حديث قتله قال لقومه: ﴿إني عذت﴾ بالله الذي هو ربي وربكم وقوله: ﴿وربكم﴾ فيه بعث لهم عن أن يقتلوا به، فيعونوا بالله عياده ويعتصموا بالتوكل عليه اعتصامه وقال: ﴿من كل متكبر﴾ لتشمل استعاضته فرعون وغيره من الجبابرة، وليكون على طريقة التعريض فيكون أبلغ وأراد بالتكبر الاستكبار عن الإنعان للحق وهو أقبح استكبار وألله على دناءة صاحبه، ومهانة نفسه وعلى فرط ظلمه وعسفه وقال: ﴿لا يؤمن بيوم الحساب﴾ لأنه إذا اجتمع في الرجل التجبر، والتكذيب بالجزاء وقلة المبالاة بالعاقبة فقد استكمل أسباب القسوة والجرأة على الله وعباده ولم يترك عظيمة إلا ارتكبها وعنت ولذت أخوان، وقرئ: عت بالإدغام.

وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا
أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَذِبًا
فَلْيَكُ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضَ الَّذِي يَعِدْكُمْ إِنَّ اللَّهَ
لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ ﴿٧٨﴾.

﴿رجل مؤمن﴾ وقرئ: ﴿رجل﴾ بسكون الجيم كما يقال عضد في عضد، وكان قبطياً ابن عم لفرعون آمن بموسى سرّاً وقيل: كان إسرائيلياً و﴿من آل فرعون﴾ صفة رجل أو صلة ليكنتم أي يكتُم إيمانه من آل فرعون، واسم سمعان أو حبيب وقيل: خربيل أو حزبييل والظاهر أنه كان من آل فرعون فإن المؤمنين من بني إسرائيل لم يفلتوا، ولم يعزوا والدليل عليه قول فرعون أبناء الذين آمنوا معه ونول المؤمن فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا دليل ظاهر على أنه ينتصح لقومه ﴿أن يقول﴾ لأن يقول وهذا إنكار عنه عظيم وتكيت شديد، كأنه قال: أترتكبون الفعلة الشنعاء التي هي قتل نفس محرمة وما لكم علة قط في ارتكابها إلا كلمة الحق التي نطق بها وهي قوله: ﴿ربي الله﴾ مع أنه لم يحضر لتصحیح قوله بيته واحدة، ولكن بينات عدة من عند من نسب إليه الربوبية وهو ربكم لا ربه وحده وهو استدراج لهم إلى الاعتراف به وليلين بذلك جماعهم ويكسر من سورتهم ولك أن تقدر مضافاً محذوفاً أي وقت أن يقول، والمعنى: اتقلتونه ساعة سمعتم منه هذا القول من غير روية ولا فكر في أمره وقوله: ﴿بالبينات﴾ يريد بالبينات العظيمة التي عهدتموها وشهدتموها، ثم أخذهم بالاحتجاج على طريقة التقسيم فقال: لا يخلو من أن يكون كاذباً أو صادقاً ف﴿إن يك كاذباً فعليه كذبه﴾ أي يعود عليه كذبه ولا يتخطاه ضرره ﴿وإن يك صادقاً يصبكم بعض﴾ ما يعدكم إن

(1) أخذه ابن حبان في كتاب: التاريخ، باب: عتب النبي ﷺ (الحديث

أصحاب الجنة ﴿﴾، ويجوز أن يكون تصايحهم بالويل والثبور. وقرئ بالتشديد وهو أن يند بعضهم من بعض كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾، وعن الضحاک: إذا سمعوا زفير النار ندوا هرباً فلا يأتون قطراً من الأقطار إلا وجدا ملائكة صفوفاً فبينما هم يموج بعضهم في بعض إذ سمعوا منادياً أقبلوا إلى الحساب.

يَوْمَ تُولَوْنَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ عَاصِيَةٍ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٢﴾.

﴿تولون مدبرين﴾ عن قتادة منصرفين عن موقف الحساب إلى النار وعن مجاهد فارتين عن النار غير معجزين.

وَلَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِ يَأْتِيَنَّكُمْ قَدْ رَلَّمَتْ فِي سَكِّ مَمَّا جَاءَكُمْ يَوْمَ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قَلْتُمْ أَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِئٌ مُرْتَابٍ ﴿٣٣﴾.

هو يوسف بن يعقوب عليهما السلام وقيل: هو يوسف بن إبراهيم بن يوسف بن يعقوب أقام فيهم نبياً عشرين سنة وقيل: إن فرعون موسى هو فرعون يوسف عمر إلى زمنه وقيل: هو فرعون آخر وبخهم بأن يوسف أتاكم بالمعجزات، فشككتكم فيها ولم تزالوا شاكين كافرين ﴿حتى إذا﴾ قبض ﴿قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا﴾ حكماً من عند أنفسكم من غير برهان، وتقدمة عزم منكم على تكذيب الرسل فإذا جاءكم رسول جحدتم وكنبتم بناء على حكمكم الباطل الذي أسستموه وليس قولهم لن يبعث الله من بعده رسولا بتصديق لرسالة يوسف، وكيف وقد شكوا فيها وكفروا بها وإنما هو تكذيب لرسالة من بعده مضموم إلى تكذيب رسالته، وقرئ: إن يبعث الله على إبخال همزة الاستفهام على حرف النفي كان بعضهم يقرّر بعضاً بنفي البعث، ثم قال: ﴿كنذك يضل الله﴾ أي مثل هذا الخذلان المبين يخذل الله كل مسرف في عصيانه مراتب في دينه.

الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِمَنِّ سُلْطَانِ أَنتَهُمْ كَبُرَ مَقَامًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطَّيْعُ اللَّهُ عَنِ كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٤﴾.

﴿الذين يجادلون﴾ بدل من من هو مسرف.

فإن قلت: كيف جاز إبداله منه وهو جمع وذلك موحد؟ قلت: لأنه لا يريد مسرفاً واحداً فكانه قال: كل مسرف.

فإن قلت: فما فاعل ﴿كبر﴾؟ قلت: ضمير من هو مسرف.

فإن قلت: أما قلت هو جمع ولهذا أبدلت منه الذين يجادلون! قلت: بلى هو جمع في المعنى، وأما اللفظ فموحد

إلا بما أرى من قتله يعني: لا استصوب إلا قتله وهذا الذي تقولونه غير صواب ﴿وما أهنيكم﴾ بهذا الرأي ﴿إلا سبيل الرشاد﴾ يريد سبيل الصواب والصلاح أو ما أعلمكم إلا ما أعلم من الصواب ولا أؤخر منه شيئاً ولا أسر عنكم خلاف ما أظهر يعني: أن لسانه، وقلبه متواطئان على ما يقول وقد كذب فقد كان مستشعراً للخوف الشديد من جهة موسى، ولكنه كان يتجلد ولولا استشعاره لم يستشر أحداً ولم يقف الأمر على الإشارة. وقرئ: الرشاد فعال من رشد بالكسر كعلام، أو من رشد بالفتح كعباد وقيل: وهو من أرشد كجبار من أجبر وليس بذلك لأن فعلاً من أفعال لم يجرى إلا في عدّة أحرف نحو دراك وسار وقصار وحبارة، ولا يصح القياس على القليل ويجوز أن يكون نسبة إلى الرشاد كمواج وبتات غير منظور فيه إلى فعل.

وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَنْعَمُ رَبِّي أَنَا وَالْحَزَابِ ﴿٣٥﴾.

﴿مثل يوم الأحزاب﴾ مثل أيامهم لأنه لما أضافه إلى الأحزاب وفسرهم بقوم نوح وعاد وثمود، ولم يلبس أن كل حزب منهم كان له يوم دمار اقتصر على الواحد من الجمع لأن المضاف إليه أغنى عن ذلك كقوله: ﴿كلوا في بعض بطنكم تعفوا﴾ وقال الزجاج: مثل يوم حزب حزب ودأب هؤلاء نؤبهم في عملهم من الكفر والتكذيب وسائر المعاصي وكون ذلك دائماً دائماً منهم لا يفترون عنه ولا بد من حذف مضاف يريد مثل جزء دأبهم.

فإن قلت: بم انتصب مثل الثاني! قلت: بأنه عطف بيان لمثل الأول لأن آخر ما تناولته الإضافة قوم نوح ولو قلت أهلك الله الأحزاب قوم نوح وعاد وثمود لم يكن إلا عطف بيان لإضافة قوم إلى أعلام فسرى ذلك الحكم إلى أول ما تناولته الإضافة.

مَثَلُ دَابِّ قَوْمٍ فَجِئَ وَعَادِ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظَلْمًا لِلْعِبَادِ ﴿٣٦﴾.

﴿وما الله يريد ظلماً للعباد﴾ يعني: أن تدميرهم كان عدلاً وقسطاً لأنهم استوجبوه بأعمالهم، وهو أبلغ من قوله تعالى: ﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾^(١) حيث جعل العنفي إرادة الظلم لأن من كان عن إرادة الظلم بعيداً كان عن الظلم أبعد وحيث نكر الظلم كانه نفى أن يريد ظلماً ما لعباده ويجوز أن يكون معناه كعنى قوله تعالى: ﴿ولا يرضى لعباده الكفر﴾^(٢) أي لا يريد لهم أن يظلموا يعني أنه دمرهم لأنهم كانوا ظالمين.

وَيَنْعَمُ رَبِّي أَنَا وَالْحَزَابِ بِمِثْلِ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٧﴾.

التنادي ما حكى الله تعالى في سورة الأعراف من قوله: ﴿ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار ونادى أصحاب النار

وَقَالَ الَّذِينَ مَاتُوا بُعُودًا أَلَمْ يَأْتِهِمُ نَذِيرٌ ﴿٣٨﴾
 يَقُولُونَ إِنَّمَا هَذِهِ الْآخِرَةُ نَجَعْنَا مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٣٩﴾ هِيَ دَارُ الْفِرَاقِ
 ﴿٤٠﴾

قال: ﴿أهدكم سبيل للرشاد﴾ فأجمل لهم ثم فسّر فافتتح بدم الدنيا وتصغير شأنها لأن الإخلاق إليها هو أصل الشر كله ومنه يتشعب جميع ما يؤدي إلى سحق الله ويجلب الشقاوة في العاقبة وثنى بتعظيم الآخرة والاطلاع على حقيقتها وأنها هي الوطن والمستقر ونكر الأعمال سيئها وحسنها وعاقبة كل منهما ليثبط عما يتلف وينشط لما يزلف، ثم وازن بين الدعوتين دعوة إلى دين الله الذي ثمرته التجارة ودعوتهم إلى اتخاذ الأنداد الذي عاقبته النار وحذروا وأنذروا واجتهد في تلك واحتشد لا جرم أن الله استثناه من آل فرعون وجعله حجة عليهم وعبرة للمعتبرين وهو قوله تعالى: ﴿فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب﴾ (2) وفي هذا أيضًا دليل بين على أن الرجل كان من آل فرعون والرشاد نقيض الغي، وفيه تعريض شبيهه بالتصريح أن ما عليه فرعون وقومه هو سبيل الغي.

مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ دُونِهَا أَوْ أُنْزِلَتْ عَلَيْهِ نُجُودٌ مِّنْ سَمَوَاتٍ يَدْخُلُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤١﴾

﴿فلا يجزى إلا مثلها﴾ لأن الزيادة على مقدار جزاء السيئة قبيحة لأنها ظلم وأما الزيادة على مقدار جزاء الحسنة فحسنة لأنها فضل، قرئ: يدخلون ويدخلون ﴿بغير حساب﴾ واقع في مقابلة إلا مثلها يعني أن جزاء السيئة لها حساب وتقدير لئلا يزيد على الاستحقاق فأما جزاء العمل الصالح، فبغير تقدير وحساب بل ما شئت من الزيادة على الحق والكثرة والسعة.

﴿وَيَقُولُ مَا إِلَىٰ آلِهِمْ نَذِيرٌ﴾ إِلَىٰ النَّارِ ﴿٤٢﴾

فإن قلّت: لمكرر نداء قومه، ولم جاء بالواو في النداء الثالث دون الثاني؛ قلّت: أما تكرير النداء ففيه زيادة تنبيه لهم وإيقاظ عن سنة الغفلة، وفيه أنهم قومه وعشيرته وهم فيما يوبقهم وهو يعلم وجه خلاصهم ونصيحتهم عليه واجبة فهو يتحزن لهم ويتلطف بهم ويستدعي بذلك أن لا يتهموه فإن سرورهم سروره وغمهم غمه وينزلوا على تنصيحه لهم كما كرر إبراهيم عليه السلام في نصيحة أبيه يا أبت، وأما المجيء بالواو العاطفة فلأن الثاني داخل على كلام هو بيان للمجمل وتفسير له فأعطى الداخل عليه حكمه في امتناع دخول الواو، وأما الثالث فداخل على كلام ليس بتلك المثابة. يقال دعاه إلى كذا ودعاه له كما تقول هذه إلى الطريق وهذه له.

فحمل البديل على معناه والضمير الراجع إليه على لفظه وليس ببدع أن يحمل على اللفظ تارة وعلى المعنى أخرى وله نظائر، ويجوز أن يرفع الذين يجادلون على الابتداء ولا بد في هذا الوجه من حذف مضاف يرجع إليه الضمير في كبر تقديره جدال الذين يجادلون كبر مقتاً ويحتمل أن يكون الذين يجادلون مبتدأ وبغير سلطان أتاهم خبراً وفاعل كبر قوله ﴿كذلك﴾ أي كبر مقتاً مثل تلك الجدال ويطبع الله كلام مستأنف ومن قال: كبر مقتاً عند الله جدالهم، فقد حذف الفاعل والفاعل لا يصح حذفه وفي كبر مقتاً ضرب من التعجب والاستعظام لجدالهم والشهادة على خروجه من حد إشكاله من الكباش، وقرئ: سلطان بضم اللام وقرئ: قلب بالتنونين ووصف القلب بالتكبر والتجبر لأنه مركزهما ومنبعهما كما تقول: رأت العين وسمعت الأذن ونحوه قوله عز وجل: ﴿فإنه أثم قلبه﴾ (1) وإن كان الأثم هو الجملة، ويجوز أن يكون على حذف المضاف أي على كل ذي قلب متكبر تجعل الصفة لصاحب القلب.

وَقَالَ رَجُلٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ آيَاتِنَا وَيُكَفِّرُ بِنِعْمَتِنَا وَهُوَ كَرِيمٌ ﴿٤٣﴾

قبي: الصرح البناء الظاهر الذي لا يخفى على الناظر وإن بعد، اشتقوه من صرح الشيء إذا ظهر.

أَتَتْهُ السَّمَوَاتُ فَأَطْلَحَ إِلَيْهِ مَائِدَٰتٍ مِّنَ السَّمَٰوَاتِ كَذِبًا وَكَذَٰلِكَ يُرِيذُ الْفِرْعَوْنَ سُوًىٰ عَمَلِهِۦ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ الْفِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٤٤﴾

و ﴿أسباب السموات﴾ طرقها وأبوابها وما يؤدي إليها وكل ما أدرك إلى شيء، فهو سبب إليه كالرشاء ونحوه.

فإن قلّت: ما فائدة هذا التكرير ولو قيل لعلي أبلغ أسباب السموات لاجزأ! قلّت: إذا أبهم الشيء ثم أوضح كان تفخيماً لشأنه فلما أراد تفخيم ما أمل بلوغه من أسباب السموات أبهمها ثم أوضحها ولأنه لما كان بلوغها أمراً عجيبياً أراد أن يورده على نفس متشرفة إليه ليعطيه السامع حقه من التعجب، فأبهمه ليشوف إليه نفس هامل ثم أوضحه. وقرئ: فأطلع بالنصب على جواب الترجي تشبيهاً للترجي بالتمني، ومثل تلك التزيين وذلك الصد ﴿زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل﴾ والمزين إما الشيطان بوسوسته كقوله تعالى: ﴿وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل﴾، أو الله تعالى على وجه التسبب لأنه مكن الشيطان وأمهله ومثله: ﴿زيننا لهم أعمالهم فهم يعمهون﴾، وقرئ: وزين له سوء عمله على البناء للفاعل والفعل لله عز وجل دل عليه قوله إلى إله موسى وصد بفتح الصاد وضمها وكسرها على نقل حركة العين إلى الفاء كما قيل: قيل، والتباب: الحُسران والهلاك وصد مصدر معطوف على سوء عمله وصدوا هو وقومه

لأنها باطلة وأنهم لو جاؤا بعمذرة لم تكن مقبولة لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْنِسُ لَهُمْ فِيعْتَدُونَ﴾ (١).

يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْرِزَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ
الْآخِرَةِ. (٥٦)

﴿ولهم اللعنة﴾ البعد من رحمة الله ﴿ولهم سوء الدار﴾ أي سوء دار الآخرة وهو عذابها، وقرئ تقوم ولا تنفع بالباء والياء يريد بالهدى جميع ما أتاه في باب الدين من المعجزات والتوراة والشرايع.

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ (٥٧)
﴿واورثنا﴾، وتركنا على بني إسرائيل من بعده
﴿الكتاب﴾ أي التوراة.

هُدًى وَزَكَرَتْنَا لِأُولَى الْأَلْبَابِ (٥٨).

﴿هدى وذكرى﴾ إرشاداً وتذكرة وانتصابهما على المفعول له أو على الحال وأولو الألباب المؤمنون به العاملون بما فيه.

فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ
رَبِّكَ بِالْمُتَّقِينَ وَالْإِنْبِيَاءِ (٥٩).

﴿فاصبر إن وعد الله حق﴾ يعني أن نصرة الرسل في ضمان الله وضمنان الله لا يخلف واستشهد بموسى، وما أتاه من أسباب الهدى والنصرة على فرعون وجنوده وإبقاء آثار هداية في بني إسرائيل والله ناصر كما نصرهم ومظهر على الدين كله ومبلغ ملك أمتك مشارق الأرض ومغاربها، فاصبر على ما يجزئك قومك من الغصص فإن العاقبة لك وما سبق به وعدى من نصرتك وإعلاء كلمتك حق وأقبل على التقوى واستدرك الفراط بالاستغفار ودم على عبادة ربك والشناء عليه ﴿بالعشي والإبكار﴾ وقيل: هما صلاتا العصر والفجر.

إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِتَعَرُّفٍ مُسَلِّطِينَ أَنَّهُمْ إِنْ فِي
سُؤْرِهِمْ إِلَّا حِكْرٌ مَّا هُمْ بِيَكْفِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ
السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٦٠).

﴿إن في صدورهم إلا كبر﴾ إلا تكبر وتعظم وهو إرادة التقدّم والرياسة وإن لا يكون أحد فوقهم ولذلك عادوك، ودفعوا آياتك خيفة أن تتقدمهم ويكونوا تحت يدك وأمرك ونهيك لأن النبوة تحتها كل ملك ورياسة أو إرادة أن تكون لهم النبوة نونك حسداً وبغياً ويدل عليه قوله تعالى: ﴿لو كان خيراً ما سبقونا إليه﴾ (٢) أو إرادة دفع الآيات بالجدال ﴿ما هم ببالغية﴾ أي ببالغي موجب الكبر ومقتضيه، وهو متعلق إرادتهم من الرياسة أو النبوة أو دفع الآيات، وقيل: المجادلون هم اليهود وكانوا يقولون يخرج صاحبنا المسيح بن داود يريدون الدجال ويبلغ

فإن قلت: هل يجوز أن يكون كلاً حالاً قد عمل فيها فيها؟ قلت: لا لأن الظرف لا يعمل في الحال متقدمة كما يعمل في الظرف متقدماً تقول: كل يوم لك ثوب، ولا تقول قائماً في الدار زيد.

قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّكَ اللَّهُ قَدَّ حَكَمَ بَيْنَ
الْعِبَادِ (٦١).

﴿قد حكم بين العباد﴾ قضى بينهم وفصل بأن أدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار.

وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَتِهِمْ جَهَنَّمَ أَدْعُوا رَبَّكُمْ يُحَوِّفُ عَنَّا يَوْمًا
مِنَ الْعَذَابِ (٦٢).

﴿لخزنته جهنم﴾ للقوام بتعذيب أهلها.

فإن قلت: هلا قيل الذين في النار لخزنتها؟ قلت: لأن في نكر جهنم تهويلاً وتفظيماً، ويحتمل أن جهنم هي أبعاد النار قعرًا من قولهم بئر جهنم بعيدة القعر وقولهم في النابغة جهنم تسمية بها لزعمهم أنه يلقي الشعر على لسان المنتسب إليه، فهو بعيد الغور في علمه بالشعر كما قال أبو نواس في خلف الأحمر: فليذم من العاليم الخسف، وفيها أعني: الكفار وأطغاهم فلعل الملائكة الموكلين بعذاب أولئك أجوب دعوة لزيادة قربهم من الله تعالى فلهذا تعددهم أهل النار بطلب الدعوة منهم.

قَالُوا أَوَلَمْ نَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا
فَادْعُوا مَا دَعَوْنَا الْكُفْرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (٦٣).

﴿أولم تك تأتيكم﴾ إلزام للحجة وتوبيخ، وأنهم خلفوا وراءهم أوقات الدعاء والتضرع وعللوا الأسباب التي يستجيب الله لها الدعوات ﴿قالوا فادعوا﴾ أنتم فإننا لا نجترئ على ذلك ولا نشفع إلا بشرطين كون المشفوع له غير ظالم، والإذن في الشفاعة مع مراعاة وقتها وذلك قبل الحكم الفاصل بين الفريقين وليس قولهم فادعوا لرجاء المنفعة ولكن الدلالة على الخيبة، فإن الملك المقرب إذا لم يسمع دعاؤه فكيف يسمع دعاء الكافر.

إِنَّا لَنَصُرُّ مُؤْمِنًا وَالدِّينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ
الْأَشْهُدُ (٦٤).

﴿في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾ أي في الدنيا والآخرة يعني: أنه يغلبهم في الدارين جميعاً بالحجة والظفر على مخالفيهم وإن غلبوا في الدنيا في بعض الأحيان امتحاناً من الله، فالعاقبة لهم ويتيح الله من يقتص من أعدائهم ولو بعد حين والأشهاد جمع شاهد كصاحب وأصحاب يريد الحفظة من الملائكة والأنبياء والمؤمنين من أمة محمد ﷺ لتكونوا شهداء على الناس واليوم الثاني بدل من الأول يحتمل أنهم يعتذرون بعمذرة، ولكنها لا تنفع

باب من العبادة ومن أفضل أبوابها يصنقه قول ابن عباس رضي الله عنهما أفضل العبادة الدعاء⁽³⁾ وعن كعب: أعطى الله هذه الأمة ثلاث خلال لم يعطهن إلا نبياً مرسلاً كان يقول: لكل نبي أنت شاهدي على خلقي وقال: لهذه الأمة لتكونوا شهداء على الناس وكان يقول ما عليك من حرج وقال لنا: ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج وكان يقول: ادعني أستجب لك وقال: لنا ادعوني أستجب لكم، وعن ابن عباس: وحدوني أغفر لكم وهذا تفسير للدعاء بالعبادة ثم للعبادة بالتوحيد ﴿والخبرين﴾ صاغرين.

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ آيَاتٍ لِتَشْكُرُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّكَ اللَّهُ لَدُوٌّ فَضِيلٌ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿١١﴾

﴿مبصراً﴾: من الإسناد المجازي لأن الإبصار في الحقيقة لأهل النهار.

فإن قُلْتَ: لم قرن الليل بالمفعول له والنهار بالحال، وهلا كنا حالين أو مفعولاً لهما فيراعى حق المقابلة؟ قلت: هما متقابلان من حيث المعنى لأن كل واحد منهما يؤدي مؤدى الآخر ولأنه لو قيل: لتبصروا فيه فأتت الفصاحة التي في الإسناد المجازي ولو قيل: ساكناً والليل يجوز أن يوصف بالسكون على الحقيقة الا ترى إلى قولهم ليل ساج وساكن لا ربح فيه لم تتميز الحقيقة من المجاز.

فإن قُلْتَ: فلو قيل ولكن أكثرهم فلا يتكرر نكر الناس! قُلْتَ: في هذا التكرير تخصيص لكفران النعمة بهم، وأنهم هم الذين يكفرون فضل الله ولا يشكرونه كقوله إن الإنسان لكفور إن الإنسان لربه لكنود إن الإنسان لظلوم كفار ﴿ولنكم﴾ المعلوم المتميز بالأفعال الخاصة التي لا يشاركه فيها أحد هو.

ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلِيقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاقْبَلُوا تَوَكُّرًا ﴿١٢﴾

﴿الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو﴾ أخبار مترادفة أي: هو الجامع لهذه الأوصاف من الإلهية والربوبية وخلق كل شيء وإنشائه لا يمتنع عليه شيء والوحدانية لا ثاني له ﴿فاني توفكون﴾، فكيف ومن أي وجه تصرفون عن عبادته إلى عبادة الأوثان.

كَذَلِكَ يُؤْتِيكَ الْوَالِدُ الْوَالِدَاتُ كَأَنَّهُنَّ آبَاءٌ وَمَا يَكْفُرُونَ بِآبَائِهِمْ ﴿١٣﴾

ثم نكر أن كل من جحد بآيات الله، ولم يتأملها ولم يكن فيه همة طلب الحق وخشية العقاب أفك كما أفكوا، وقرئ خالق كل شيء نصباً على الاختصاص، وتوفكون بالتاء والياء هذه أيضاً دلالة أخرى على تمييزه بأفعال خاصة وهي أنه جعل الأرض مستقراً.

سلطانة البر والبحر وتسير معه الأنهار وهو آية من آيات الله فيرجع إلينا الملك فسمى الله تمنيمهم ذلك كبراً ونفى أن يبلغوا متناهم ﴿فاستعد بالله﴾ فالتجى إليه من كيد من يحسدك، ويبغي عليك ﴿إنه هو السميع﴾ لما تقول ويقولون ﴿البصير﴾ بما تعمل ويعملون فهو ناصرك عليهم وعاصمك من شرهم.

لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾

فإن قُلْتَ: كيف اتصل قوله:

﴿لخلق السموات والأرض﴾ بما قبله؟ قلت: إن مجالتهم في آيات الله كانت مشتملة على إنكار البعث وهو أصل المجالمة ومدارها، فحجوا بخلق السموات والأرض لأنهم كانوا مقرين بأن الله خالقها بانها خلق عظيم لا يقاير قدره وخلق الناس بالقياس إليه شيء قليل مهين فمن قدر على خلقها مع عظمها كان على خلق الإنسان مع مهانته أقدر وهو أبلغ من الاستشهاد بخلق مثله ﴿لا يعلمون﴾ لأنهم لا ينظرون ولا يتأملون لغلبة الغفلة عليهم واتباعهم أهواءهم.

وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا الْمُسُؤِمَةُ قَلِيلًا مَّا نَتَذَكَّرُونَ ﴿١٥﴾

ضرب الأعمى والبصير مثلاً للمحسن والمسيء، وقرئ ﴿يتذكرون﴾ بالياء والتاء والتاء أعم.

إِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّبَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٦﴾

﴿لا ريب فيها﴾ لا بد من مجيئها ولا محالة وليس بمرتاب فيها لأنه لا بد من جزاء ﴿لا يؤمنون﴾ لا يصدقون بها.

وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿١٧﴾

﴿ادعوني﴾ اعبدوني والدعاء بمعنى: العبادة كثير في القرآن ويدل عليه قوله تعالى: ﴿إن الذين يستكبرون عن عبادتي﴾ والاستجابة الإثابة وفي تفسير مجاهد: اعبدوني أثبكم. وعن الحسن: وقد سئل عنها أعموا وأبشروا فإنه حق على الله أن يستجيب للذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله وعن الثوري أنه قيل له: ادع الله، فقال إن ترك الذنوب هو الدعاء وفي الحديث: «إنما شغل عبدي طاعتي عن الدعاء أعطيته أفضل ما أعطي السائلين»⁽¹⁾. وروى النعمان بن بشير رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ الدعاء هو العبادة⁽²⁾ وقرأ هذه الآية ويجوز أن يريد الدعاء والاستجابة على ظاهرهما ويريد بعبادتي دعائي لأن الدعاء

(2) تقدم في سورة: مريم.

(3) أخرجه الحاكم في المستدرک: 491/1.

(1) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن، باب: (45) (الحديث:

هُوَ الَّذِي جَمَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً سَلَاطِينًا ۗ إِنَّكُمْ لِرَبِّكُمْ كَافِرُونَ ﴿٤٦﴾

﴿فإنما قضى أمراً فإنما يقول له كُن فَيَكُونُ﴾ جعل هذا نتيجة من قدرته على الإحياء والإماتة وسائر ما نكر من أفعاله الدالة على أن مقدوراً لا يمتنع عليه كانه قال: فلذلك من الاقتدار إذا قضى أمراً كان أهون شيء وأسرع.

الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَمِمَّا أُرْسِلْنَا بِهِ رَسُولَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾

﴿بِالْكِتَابِ﴾ بالقرآن ﴿وبما أُرسلنا به رسَلنا﴾ من الكتب.

إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٤٨﴾

فإن قُلْتُ: وهل قوله:

﴿فسوف يعلمون إذ الأغلال في أعناقهم﴾ إلى مثل قولك سوف أصوم أمس؟ قُلْتُ: المعنى على إذا إلا أن الأمور المستقبلية لما كانت في أخبار الله تعالى متيقنة مقطوعاً بها عبر عنها بلفظ ما كان ووجد والمعنى: على الاستقبال، وعن ابن عباس والسلاسل يسحبون بالنصب وفتح الياء على عطف الجملة الفعلية على الإسمية وعنه والسلاسل يسحبون بحر السلاسل ووجه أنه لو قيل: إذ أعناقهم في الأغلال مكان قوله إذ الأغلال في أعناقهم لكان صحيحاً مستقيماً، فلما كانتا عبارتين معتقبتين حمل قوله والسلاسل على العبارة الأخرى ونظيره:

مشائهم ليسوا مصلحين عشيرة ولا ناعب إلا بيبين غرابها كأنه قيل: بمصلحين وقرئ وبالسلاسل يسحبون.

فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٤٩﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَنْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَشْرِكُونَ ﴿٥٠﴾

﴿في النار يسجرون﴾ من سجر التنوير إذا ملاه بالوقود ومنه السجير كأنه سجر بالحب أي ملء، ومعناه: أنهم في النار فهي محيطة بهم وهم مسجورون بالنار مملوءة بها أجوافهم ومنه قوله تعالى: ﴿نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة﴾⁽⁴⁾ اللهم أجرنا من نارك فلما عاتنوا بجوارك.

مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا صَلُّوا عَلَيْنَا بَل لَّا تُكْفِرُونَ بِنَارِكُمْ إِنَّكُمْ لَعِنَاءٌ مِّن دُونِ اللَّهِ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٥١﴾

﴿ضلوا عنا﴾ غابوا عن عيوننا فلا نراهم ولا ننتفع

بهم.

فإن قُلْتُ: أما نكرت في تفسير قوله تعالى: ﴿إنكم وما

اللَّهُ الَّذِي جَمَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً سَلَاطِينًا ۗ إِنَّكُمْ لِرَبِّكُمْ كَافِرُونَ ﴿٤٦﴾

﴿والسماء بناء﴾ أي قبة ومنه أبنية العرب لمضاربهما لأن السمااء في منظر العين كقبة مضرورية على وجه الأرض ﴿فأحسن صوركم﴾، وقرئ بكسر الصاد والمعنى واحد قبيل لم يخلق حيواناً أحسن صورة من الإنسان وقيل: لم يخلق منكوسين كالبهائم كقوله تعالى: ﴿في أحسن تقويم﴾⁽¹⁾.

هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَكَادَهُمْ يَحْضِرِينَ لَهُ الَّذِينَ كَانُوا يُحْسِنُونَ صُلْحَهُمْ ﴿٥٢﴾

﴿فادعوه﴾ فاعبدوه ﴿مخلصين له الدين﴾ أي الطاعة من الشرك والرياء قائلين ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ وعن ابن عباس رضي الله عنهما من قال: لا إله إلا الله فليقل على أثرها الحمد لله رب العالمين⁽²⁾.

قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمرْتُ أَنْ أَسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٣﴾

فإن قُلْتُ: أما نهى رسول الله ﷺ عن عبادة الأوثان بأدلة العقل حتى جاءته البينات من ربه قُلْتُ: بلى ولكن البينات لما كانت مقوية لدالة العقل ومؤكدة لها ومضمنة نكرها نحو قوله تعالى: ﴿أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون﴾⁽³⁾ وأشبه ذلك من التنبيه على أدلة العقل كان ذكر البينات نكراً لأدلة العقل والسمع جميعاً وإنما نكر ما يدل على الأمرين جميعاً لأن نكر تناصر الأدلة أدلة العقل وأدلة السمع أقوى في إبطال مذهبهم وإن كانت أدلة العقل وحدها كافية.

هُوَ الَّذِي عَلَّمَكُم بِنُزُلِ الْمَائِدِ مِنْ سَمَاءٍ مِّن دُونِ السَّمَاءِ لِيُظْهِرَ لَكُمْ آيَاتِهِ وَلِيُذَكِّرَ الَّذِينَ لَمْ يَرْجِعُوا إِلَى اللَّهِ ۗ إِنَّكُمْ لَعِنَاءٌ مِّن دُونِ اللَّهِ كَانُوا لَا يَرْجِعُونَ ﴿٥٤﴾

﴿لتبلغوا أشدكم﴾ متعلق بفعل محذوف تقديره ثم يبتغيكم لتبلغوا، وكذلك لتكونوا وأما ﴿ولتبلغوا أجلاً مسمى﴾ فمعناه ونفعل ذلك لتبلغوا أجلاً مسمى وهو وقت الموت وقيل: يوم القيامة، وقرئ شيوخاً بكسر الشين وشيخاً على التوحيد كقوله طفلاً والمعنى: كل واحد منكم أو اقتصر على الواحد لأن الغرض بيان الجنس ﴿من قبل﴾ من قبل الشيخوخة، أو من قبل هذه الأحوال إذا خرج سقطاً ﴿ولعلكم تعقلون﴾ ما في ذلك من العبر والحجج.

(3) سورة الصافات، الآيات: 95 - 96.

(4) سورة الهمزة، الآيات: 6 - 7.

(1) سورة التين، الآية: 4.

(2) أخرجه الحاكم في المستدرک: 438/2.

نرينك الذي وعدناهم فإنا عليهم مقتدون ﴿٣﴾.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِّنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرُسُلِكَ أَنْ يَأْتِيَكَا بِكَاتِبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِنَّمَا جَاءَهُ أَمْرٌ مِّنَ اللَّهِ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ إِذْ جَاءَهُمْ هَٰذَا مِنَّا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٧٧﴾.

﴿ومنها من لم نقصص عليك﴾ قيل: بعث الله ثمانية آلاف نبي أربعة آلاف من بني إسرائيل وأربعة آلاف من سائر الناس وعن علي رضي الله عنه أن الله تعالى بعث نبياً أسود^(٤)، فهو ممن لم يقصص عليه وهذا في اقتراحهم الآيات على رسول الله ﷺ عناداً يعني أنا قد أرسلنا كثيراً من الرسل وما كان لواحد منهم ﴿أن ياتي بآية إلا بإذن الله﴾، فمن لي بأن أتى بآية مما تقترحونه إلا أن يشاء الله ويأذن في الإتيان بها ﴿فإنما جاء أمر الله﴾ وعيد ورد عقب اقتراح الآيات وأمر الله القيامة ﴿المبطلون﴾ هم المعاندون الذين اقترحوا الآيات وقد اتتهم الآيات فانكروها وسموها سحراً.

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْثَمَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٨﴾.

الأنعام الإبل خاصة.

فإن قُلْتُ: لم قال ﴿لتركبوا منها﴾ ولتبلغوا عليها ولم يقل لتأكلوا منها ولتصلوا إلى منافع أو هلا قال منها تركبون ومنها تأكلون وتبلغون عليها حاجة في صدوركم! قُلْتُ: في الركوب الركوب في الحج والغزو، وفي بلوغ الحاجة الهجرة من بلد إلى بلد لإقامة دين أو طلب علم وهذه أغراض دينية إما واجبة أو مندوب إليها مما يتعلق به إرادة الحكيم وأما الأكل وإصابة المنافع، فمن جنس المباح الذي لا يتعلق به إرادته ومعنى قوله:

وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمِنْهَا تَكْتُمُونَ ﴿٧٩﴾.

﴿وعليها وعلى الفلك تحملون﴾ وعلى الأنعام وحدها لا تحملون ولكن عليها وعلى الفلك في البر والبحر.

فإن قُلْتُ: هلا قيل وفي الفلك كما قال قلنا أحمل فيها من كل زوجين اثنين! قُلْتُ: معنى الإيعاء، ومعنى الاستعلاء كلاهما مستقيم لأن الفلك وعاء أن يكون فيها حمولة له يستعملها فلما صح المعنيان صحت العبارتان أيضاً فليطبق قوله: وعليها وبزواجه.

وَرِيكِبِكُمْ مَّا رَكِبْتُمُ اللَّهُ تَكْرُونَ ﴿٨٠﴾.

﴿فأي آيات الله﴾ جاءت على اللغة المستفيضة، وقولك فاية آيات الله قليل لأن التفرقة بين المذكر والمؤنث في

تعبدون من نون الله حصص جهنم ﴿١﴾ أنهم مقرونون بالهتيم فكيف يكونون معهم وقد ضلوا عنهم؟ قُلْتُ: يجوز أن يضلوا عنهم إذا وبخوا وقيل لهم: أينما كنتم تشركون من نون الله فيغيثوكم ويشفعوا لكم وأن يكونوا معهم في سائر الأوقات وأن يكونوا معهم في جميع أوقاتهم إلا أنهم لما لم ينفعوهم فكانهم ضالون عنهم ﴿بل لم تكن ندعوا من قبل شيئاً﴾ أي تبين لنا أنهم لم يكونوا شيئاً وما كنا نعبد بعبادتهم شيئاً كما تقول حسبت أن فلاناً شيء، فإذا هو ليس بشيء إذا خبرته فلم تر عنده خبراً ﴿كنكك يضل الله الكافرين﴾ مثل ضلال الهتيم عنهم يضلهم عن الهتيم حتى لو طلبوا الآلهة أو طلبتهم الآلهة لم يتصانفوا.

ذَلِكُمْ مِمَّا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٨١﴾ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمِمَّا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٨٢﴾.

﴿لذلك﴾ الإضلال بسبب ما كان لكم من الفرح والمرح ﴿بغير الحق﴾، وهو الشرك وعبادة الأوثان.

أَذَلُّوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَلِيلِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٨٣﴾.

﴿الخلوا أبواب جهنم﴾ السبعة المقسومة لكم قال الله تعالى: ﴿لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم﴾^(٢) ﴿خالسين﴾ مقدرين الخلود ﴿فبئس مَثْوَى المتكبرين﴾ عن الحق المستخفين به مَثْوَاكُم أو جهنم.

فإن قُلْتُ: ليس قياس النظم أن يقال فبئس مدخل المتكبرين كما تقول: زر بيت الله فنعم المزار وصل في المسجد الحرام فنعم المصلي؟ قُلْتُ: الدخول المؤقت بالخلود في معنى الثراء.

قَاصِرٍ إِذْ وَعَدَ اللَّهُ حَقَّ فَكَا تَرِيكَكَ بَعَثَ الَّذِي يَدْعُكُمْ أَوْ تَوَفِّيكَ فَأَلَيْنَا يَرْجِعُونَ ﴿٨٤﴾.

﴿فإنما نرينك﴾ أصله فإن نرك وما مزيدة لتأكيد معنى الشرط، ولذلك الحقت النون بالفعل ألا تراك لا تقول إن تكرمني أكرمك ولكن أما تكرمني أكرمك.

فإن قُلْتُ: لا يخلو إما أن تعطف ﴿أو نتوفينك﴾ على نرينك وتشركهما في جزاء واحد، وهو قوله تعالى ﴿فإلينا يرجعون﴾ فقولك فإنما نرينك بعض الذي نعدهم فإلينا يرجعون غير صحيح وإن جعلت فإلينا يرجعون مختصاً بالمعطوف الذي هو نتوفينك بقي المعطوف عليه بغير جزاء قُلْتُ: فإلينا يرجعون متعلق بنتوفينك وجزاء نرينك محذوف تقديره، فإنما نرينك بعض الذي نعدهم من العذاب وهو القتل والأسر يوم بدر فذاك أو إن نتوفينك قبل يوم بدر فإلينا يرجعون يوم القيامة، فتنتقم منهم أشد الانتقام ونحوه قوله تعالى: ﴿فإنما نذهب بك فإنا منهم منتقمون، أو

(4) أخرجه ابن مروي، وذكره الطبراني في معجمه الأوسط، وذكره الثعلبي، الزيلعي: 3/222.

(1) سورة الأنبياء، الآية: 98.

(2) سورة الحجر، الآية: 44.

(3) سورة الزخرف، الآيتان: 41 - 42.

واستهزأهم، ويجوز أن يريد بما فرحوا به من العلم علمهم بأمور الدنيا ومعرفتهم بتدبيرها كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ (4) ﴿نَلِّكُم مِّبْلَغَهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ (5) فلما جاءهم الرسل يعلمون البيانات وهي أبعد شيء من علمهم لبعثها على رفض الدنيا والظلف عن الملذات والشهوات لم يلتفتوا إليها وصغروها واستهزؤا بها واعتقدوا أنه لا علم اتفع وأجلب للفوائد من علمهم ففرحوا به.

فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَسَكَرْنَا يَمًا كُنَّا بِهِ مُتَّكِرِينَ ﴿٤٧﴾

الباس شدة العذاب ومنه قوله تعالى: ﴿بِعَذَابِ بَيْتِيسَ﴾ (6).

فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا سَتَّ اللَّهُ أَلَّتِي قَدْ خَلَّتْ فِي عِبَادَتِهِ وَخَيْرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٤٨﴾

فإن قلت: أي فرق بين قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا سَتَّ اللَّهُ أَلَّتِي قَدْ خَلَّتْ فِي عِبَادَتِهِ وَخَيْرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ (7) والمعنى فلم يصح ولم يستقم أن يفهم إيمانهم.

فإن قلت: كيف ترانفت هذه الفألت؟ قلت: أما قوله تعالى: ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ﴾ (8) فهو نتيجة قوله: ﴿كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ﴾ (9) وأما قوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ (10) فجار مجرى البيان والتفسير لقوله تعالى: ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ﴾ (11) كقولك رزق زيد المال فممنع المعروف فلم يحسن إلى الفقراء وقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ (12) تابع لقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ﴾ (13) كانه قال: فكفروا فلما رأوا بأسنا آمنوا وكذلك فلم يك يفهم إيمانهم تابع لإيمانهم لما رأوا بأس الله ﴿سُنَّتِ اللَّهُ﴾ بمنزلة وعد الله وما أشبهه من المصادر المؤكدة و﴿هُنَالِكَ﴾ مكان مستعار للزمان أي وخسروا وقت رؤية الباس، وكذلك قوله: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ (14) بعد قوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قَضَىٰ بِالْحَقِّ﴾ (15) أي وخسروا وقت مجيء أمر الله أو وقت القضاء بالحق، عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة المؤمن لم يبق روح نبي ولا صديق ولا شهيد ولا مؤمن إلا صلى عليه واستغفر له».

الأسماء غير الصفات نحو حمار وحمارة غريب، وهي في أي أغرب لاتهامه.

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَسَاطِرًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٤٧﴾

﴿وَأَسَاطِرًا﴾ قصورهم ومصانعهم وقيل: مشيهم بأرجلهم لعظم أجرامهم ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ﴾ ما نافية أو مضمنة معنى الاستفهام ومحلها النصب والثانية موصولة، أو مصدرية ومحلها الرفع يعني أي شيء أغنى عنهم كسوبهم أو كسبهم فرحوا بما عندهم من العلم فيه وجوه منها أنه أراد العلم الوارد على طريق التهكم في قوله تعالى: ﴿يَلِ أَدْرَاكِ عِلْمِهِم فِي الْآخِرَةِ﴾ (1) وعلمهم في الآخرة أنهم كانوا يقولون: لا نبعث ولا نعذب وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيرا منها منقلبا وكانوا يفرحون بذلك ويدفعون به البيئات وعلم الأنبياء كما قال عز وجل: ﴿كُلَّ حِزْبٍ بِمَا لِيَهُمْ فَرِحُونَ﴾ (2) ومنها أن يريد علم الفلاسفة والدهريين من بني بونان وكانوا إذا سمعوا بوحي الله نفعوه وصغروا علم الأنبياء إلى علمهم، وعن سقراط أنه سمع بموسى صلوات الله عليه وسلامه وقيل له: لو هاجرت إليه فقال: نحن قوم مهذبون فلا حاجة بنا إلى من يهذبنا ومنها أن يوضع قوله: فرحوا بما عندهم من العلم ولا علم عندهم البتة موضع قوله لم يفرحوا بما جاءهم من العلم مبالغة في نفي فرحهم بالوحي الموجب لأقصى الفرح والسعادة مع تهكم بفرط جهلهم وخلوهم من العلماء ومنها أن يراد فرحوا بما عند الرسل من العلم فرح ضحك منه واستهزاء به كانه قال: استهزؤا بالبيئات وبما جاؤا به من علم الوحي فرحين مرحين ويدل عليه قوله تعالى:

فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْوَالِدِ وَمَا كَانَ لَهُمْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤٧﴾

﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (3) ومنها أن يجعل الفرح للرسل، ومعناه: أن الرسل لما رأوا جهلهم المتمادي واستهزأهم بالحق وعلموا سوء عاقبتهم وما يلحقهم من العقوبة على جهلهم واستهزأهم فرحوا بما أوتوا من العلم وشكروا الله عليه وحاق بالكافرين جزاء جهلهم

(9) سورة غافر، الآية: 82.

(10) سورة غافر، الآية: 83.

(11) سورة الأحقاف، الآية: 26.

(12) سورة غافر، الآية: 84.

(13) سورة غافر، الآية: 83.

(14) سورة غافر، الآية: 78.

(15) سورة غافر، الآية: 78.

(1) سورة النمل، الآية: 66.

(2) سورة الروم، الآية: 32.

(3) سورة الأحقاف، الآية: 26.

(4) سورة الروم، الآية: 7.

(5) سورة النجم، الآية: 30.

(6) سورة الأعراف، الآية: 165.

(7) سورة مريم، الآية: 35.

(8) سورة الأحقاف، الآية: 26.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة فصلت مكية

حَمَّ ۝ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ
قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝

إنا عاملون.
فإن قُلْتُ: هل زيادة من في قوله ﴿ومن بيننا وبينك حجاب﴾ فائدة! قُلْتُ: نعم لأنه لو قيل: وبيننا وبينك حجاب لكان المعنى: أن حجابًا حاصل وسط الجهتين وأما زيادة من فالمعنى أن حجابًا ابتدا منا، وابتدا منك فالمسافة المتوسطة لجهتنا وجهتك مستوعبة بالحجاب لا فراغ فيها.

فإن قُلْتُ: هلا قيل على قلوبنا اكنة كما قيل: وفي آذاننا وقر ليكون الكلام على نمط واحد! قُلْتُ: هو على نمط واحد لأنه لا فرق في المعنى بين قولك قلوبنا في اكنة والدليل عليه قوله تعالى: ﴿إنا جعلنا على قلوبهم اكنة﴾ (2) ولو قيل: إنا جعلنا قلوبهم في اكنة لم يختلف المعنى وترى المطابع منهم لا يراعون الطباق والملاحظة إلا في: المعاني.

قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَحِيدٌ
فَأَسْتَسِيمُوا إِلَيَّ وَاسْتَغْفِرُوا وَإِلَىٰ لِّمَشْرِكِينَ ۝

فإن قُلْتُ: من أين كان قوله: ﴿إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي﴾ جوابًا لقولهم: ﴿قلوبنا في اكنة﴾؟ قُلْتُ: من حيث أنه قال لهم إنني لست بملك، وإنما أنا بشر مثلكم وقد أوحى إلي بونكم فصحت بالوحي إلي وأنا بشر نبوتي وإذا صحت نبوتي وجب عليكم اتباعي وفيما يوحى إلي أن إلهكم إله واحد ﴿فأستقيموا إليه﴾، فاستوتوا إليه بالتوحيد وإخلاص العبادة غير ذاهبين يمينًا ولا شمالًا ولا ملتفتين إلى ما يسؤل لكم الشيطان من اتخاذ الأولياء والشفعاء ﴿وتوبوا إليه﴾ مما سبق لكم من الشرك ﴿واستغفروه﴾، وقرئ قال: إنما أنا بشر.

الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ۝

فإن قُلْتُ: لم خص من بين أوصاف المشركين منع الزكاة مقرونًا بالكفر بالآخرة؟ قُلْتُ: لأن أحب شيء إلى الإنسان ماله وهو شقيق روحه، فإذا بذله في سبيل الله فذلك أقوى دليل على ثباته واستقامته وصدق نيته ونصوح طويته ألا ترى إلى قوله عز وجل: ﴿ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتًا من أنفسهم﴾ أي يشتون أنفسهم ويدلون على ثباتها بإنفاق الأموال، وما خدع المؤلف قلوبهم إلا بلمظة من الدنيا فقرت عصبيتهم ولانت شكيمتهم وأهل الردة بعد رسول الله ﷺ ما تظاهروا إلا بمنع الزكاة فنصبت لهم الحرب وجوهدها، وفيه بعث للمؤمنين على أداء الزكاة وتخويف شديد من منعها حيث جعل المنع من أوصاف المشركين وقرن بالكفر بالآخرة وقيل: كانت قريش يطمعون الحاج ويحرمون من آمن منهم برسول الله ﷺ وقيل: لا يفعلون ما يكونون به أزكيا.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝

إن جعلت. ﴿حم﴾ إسمًا للسورة كانت في موضع المبتدا و﴿تنزيل﴾ خبره وإن جعلتها تعديًا للحروف كان تنزيل خبر المبتدا محذوف و﴿كتاب﴾ بدل من تنزيل، أو خبر بعد خبر أو خبر مبتدا محذوف وجوز الزجاج أن يكون تنزيل مبتدا، وكتاب خبره ووجه أن تنزيلًا تخصص بالصفة فساغ وقوعه مبتدا ﴿فصلت آياته﴾ ميزت وجعلت تفاصيل في معان مختلفة من أحكام وأمثال ومواعظ ووعد ووعيد وغير ذلك، وقرئ فصلت أي فرقت بين الحق والباطل أو فصل بعضها من بعض باختلاف معانيها من قولك فصل من البلد ﴿قرآنًا عربيًّا﴾ نصب على الاختصاص، والمدح أي أريد بهذا الكتاب المفصل قرآنًا من صفته كيت وكيت وقيل: هو نصب على الحال أي فصلت آياته في حال كونه قرآنًا عربيًّا ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي لقوم عرب يعلمون ما نزل عليهم من الآيات المفصلة المبينة بلسانهم العربي المبين لا يلتبس عليهم شيء منه.

فإن قُلْتُ: بم يتعلق قوله لقوم يعلمون! قُلْتُ: يجوز أن يتعلق بتنزيل أو بفصلت أي تنزيل يفرق بين الصلات والصفات.

بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝

وقرئ بشير ونذير صفة للكتاب أو خبر مبتدا محذوف ﴿فهم لا يسمعون﴾ لا يقبلون ولا يطيعون من قولك تشفعت إلى فلان فلم يسمع قولي ولقد سمعه ولكنه لما لم يقبله ولم يعمل بمقتضاه فكانه لم يسمعه.

وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ وَإِذْ مَادَّآنَا وَقَرَّ وَمِنَ بَيْنِنَا
وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْنَا عَنُلُورًا ۝

والاكنة جمع كنان وهو الغطاء، والقر بالفتح الثقل وقرئ بالكسر وهذه تمثيلات لنبو قلوبهم عن تقبل الحق واعتقاده كأنها في غلف وأغطية تمنع من نفوذه فيها كقوله تعالى: ﴿وقالوا قلوبنا غلف﴾ (1) ومع أسماعهم له كان بها صممًا عنه ولتباع المذهبين والدينين كان بينهم وما هم عليه وبين رسول الله ﷺ وما هو عليه حجابًا ساترًا وحاجزًا منيعًا من جبل، أو نحوه فلا تلاقي ولا تراخي ﴿ففاعل﴾ على دينك ﴿إننا عاملون﴾ أي على بيننا أو فاعمل في إبطال أمرنا إننا عاملون في إبطال أمرك، وقرئ

(2) سورة الكهف، الآية: 57.

(1) سورة البقرة، الآية: 88.